

مشكلات التكيف في تربية الأطفال الذين قاسوا أثناء الحرب

أنسا فرويد

في السنة الماضية من شهر نوفمبر ألفت الأنسة أنا فرويد محاضرة بالسوريون الأونسكو (١) ، في بعض المشكلات التربوية للأطفال . وقد استخلصت نتائجها من التجارب التي أجرتها في إنجلترا أثناء الحرب ، مع مريبات هامبستد التي كانت تعمل مع دورثي برانجهام . ونحن ننقل هنا ما قاله أنا فرويد .

يلوح لي أنني كنت الأولى في التفكير في هذه الدعوة وذلك لسببين : أحدهما أن اسمي قد اقترن بالتحليل النفسي منذ أمد بعيد . والآخر مشاركتي في الأبحاث التي تختص برعاية الطفل .

وقد ساعدني إلمامي بالتحليل النفسي على معالجة هذه الأبحاث في ضوءه ، وتتبع النمو الخلقى للطفل . ونحن لم نألف حتى عهد قريب أحقية عالم النفس في تحديثه عن شؤون التربية . وفي أوائل هذا القرن لم يكن هدف التربية تحقيق رفاهية الطفل ، بل خدمة المجتمع ؛ فكانت مراميها قومية أو سياسية أو دينية أو مستمدة من أفكار مثالية . ولم تكن هناك دراسات في نمو الطفل النفسي ، بل لم تحظ وظيفة هذا النمو ولا الحياة الجنسية للطفل بأى اهتمام . فقد ثار قلة من الأطفال فعارضوا المجتمع أو صاروا مجرمين .

وقد كان لوالدى الفضل في أن بدأ المعلمون يدرسون أسباب فشلهم . وسرعان ما تساءلوا في دهشة عما إذا كانت طبيعة منهجهم في التعلم هى السبب في ذلك . ولكنهم ارتأوا مع ذلك أن لهم شرفاً عظيماً في تربية البالغين ، وأن التبعة الكبرى تقع على أساتذة الجامعة .

واليوم يبدأ البحث في تكوين الطفل من الناحية التربوية . ويشكو أستاذ الجامعة من مناهج التعليم في المدارس الثانوية بسبب جهل الطلبة . ولكن معلم المدرسة الثانوية يلتقى التبعة على معلم المدرسة الابتدائية . وهذا بدوره يلوم الآباء والمربيات . ومهما يكن من أمر فإن هناك شيئاً ما قد أفسد اتجاه الطفل نحو التعليم . وهكذا فيما يختص بتكوينه الخلقي . فقد ألفت التبعة من الجامعة على المدرسة الثانوية ، ومن المدرسة الثانوية على المدرسة الابتدائية ، ومن المدرسة الابتدائية على رياض الأطفال .

ومن المؤكد أن خلق الطفل يكون قد تم تكوينه حين يندرج في المدارس الأولية . ولذلك يكون الاتجاه السليم الوحيد هو في تقصى المعلمين كل من مرحلتى الطفولة المبكرة والرضاعة .

والآن ، متى تبدأ مرحلة الطفولة المبكرة ، وكيف يكون هذا الابتداء ؟ ومن هم أولئك الذين نعتمد عليهم في الإدلاء بالمعلومات الصحيحة في هذا الميدان ؟ إن مشكلة مدارس الحضانة تختلف من مكان إلى آخر . ففي بعض البلدان لا يسمح بالدخول في هذه المدارس إلا للطبقة الفقيرة ، بينما هو مقتصر على أبناء الأغنياء في بلدان أخرى ثم إننا نجد أن رياض الأطفال ومدارس الحضانة ليست منتشرة الانتشار الكافي .

أما المربيات الخاصة فهن لا يوجهن اهتماماً خاصاً لهذه الناحية من خدمتهن . وواجب على الآباء معرفة ذلك . ويجب أيضاً أن نقابل معلومات الآباء في هذا الموضوع بشيء من التحفظ . فهي ليست دقيقة دائماً أو كاملة ، لأنهم غالباً ما تقتصون شخصية أطفالهم فيبالغون .

وما ينبغي لنا عمله الآن هو أن نرجع إلى الماضي فنتأمله ونستقصيه . وقد حاولنا ذلك وكان أن شعرنا بما كان يجب أن نعرفه دائماً . نعم ، إنه كان يخيل إلى البعض منا أنه ليس من المحتمل أن نجد حلول هذه المعضلات في تلك المرحلة بالذات ، التي لا تحفظ ذاكرتنا منها شيئاً . ومهما يكن من أمر ففي هذه المرحلة المنسية (مرحلة الطفولة) تكمن تلك الحلول . والتحليل النفسى كفيل وحده بالكشف عنها . فكل حادث هام في حياتنا إنما يبرز من الجذور اللاشعورية ، مثل اختيار المعلم أو الزواج أو أصدقائنا أو أعدائنا . الخ . وقد ممكننا ملاحظة بعض الأعراض العصبية من أن نكشف علمياً عن كيفية تأثير العوامل اللاشعورية .

إن الطفل كائن غريزي بحت ، أقرب إلى الرجل البدائي من البالغ الموجود في جماعة متحضرة . وغزيراته الرئيسيتان هما غريزة العدوان وغريزة الجنس . ولا يقصد هنا قطعاً المعنى المفهوم من الجنس في مرحلة البلوغ ولكنها على كل حال غريزة جنسية . ونشاط الطفل منحصر في البحث عن اللذة والرغبة في تجنب الألم . وهو من جهة أخرى ملتصق بموضوع حبه جسمياً وانفعالياً . ويكون أول حب للطفل خالياً من تلك الرقة التي نميل إلى أن نصفه بها . فحبه غريزي عدواني ، يميل إلى الامتلاك ، وتكتنفه الغيرة من كل جانب . وقد أطلقنا على هذه المظاهر عقدة أوديب .

والطفل مستعد في مقابل ما يحتاجه من حماية وحب أن يضغط على غرائزه ويتشبه بوالديه ، وأن يتمثل قيم الحضارة . فثلاً بدون موضوع للحب يستحيل علينا أن ندرجه على مراقبة عمليات التبول والتبرز . ويبدو في هذه الحقيقة أن تعديلاً بطيئاً يلحق بطبيعة الطفل الأولى وفقاً لموقف الوالدين . فيتحول حب الاستطلاع إلى مشاركة وجدانيه ، وتسامى مظاهر العدوان إلى مستوى أعلى مما كانت فيه . وما عملية التربية إلا نتيجة عرضية لحياة الطفل العاطفية . ومن ثم فإن هناك هوة في الشعور بين الحب والغريزة .

بدأ التحليل النفسي نقده لأهداف التربية القديمة ، باسم علم النفس لا باسم الأخلاق ، مستنداً إلى التناقض الموجود بين الأخلاق وبين طبيعة الطفل التي كان عليها الإنسان في العصر الحجري . ولكن الطفل مفروض عليه أن يصل إلى المستوى الحالي للمدينة خلال السنين الخمس الأولى من حياته .

ما أعظم الطاقة التي يضطر الطفل إلى بذلها كي يشكل شخصيته من جميع نواحيها حتى تتفق مع مقتضيات الحضارة . فبعض الأطفال تتحطم قواهم في هذا النضال العنيف فيعجزون عن القيام بأى عمل مباشر ، في حين يتخذ غيرهم موقفاً عدائياً مضاداً للمجتمع أو يصبحون من المجرمين . تلك هي النتائج التي انتهت إليها نظريات التحليل النفسي حتى الآن . ولكنها لم تكن موضع ثقة من علماء التربية ، لأن اكتشافها لم يكن خلال الأطفال بل خلال المراهقين العصبيين . وقد لاحظ نقاد التحليل النفسي أن الاقتصار على هؤلاء يفرض على تشويه نظرتنا إلى العالم .

يبد أن التربية الجديدة استطاعت أن تشق طريقها وإن كان ببطء . وحلل بعض الآباء تحليلاً نفسياً فربوا أطفالهم تربية مختلفة عن التربية القديمة .

كانت الحرب العظمى ، وكان أن تغيرت نظرة الإنسان إلى الأشياء ، وأفسدت الغرائز العدوانية العالم كله ، فكان التقدم طفيفاً حتى هذه الحرب . أما الآن فقد قطعنا بسرعة فائقة شوطاً بعيداً في التقدم . لم يحدث أن اضطرب الأطفال بقدر ما اضطربوا في هذه الحرب الأخيرة ، إذ عانوا أهوالاً مفرغة . فلم تكن الحرب لهم مفيدة ، ولكن كانت فائدتها عظيمة لعلماء التربية ، هذا إذا أرادوا أن يتخذوا منها عبرة .

لم تكن الكارثة الكبرى في فرقة القنابل بل في صدمة الفراق ، حين عيى الآباء والأمهات ، وقد كان جميل جداً أن نجد أناساً متطوعين للعناية بهؤلاء الأطفال بدلا من والديهم . وعولوا على ذلك حتى تنتهى الحرب . وقد خيل إليهم أنهم سيعاملون مخلوقات تشيع منها العاطفة والحب . ولكن هؤلاء الأطفال لم يلبثوا طويلا حتى أصبحوا عاملا فعلا في تعزيز الصفو على حياة هؤلاء المتطوعين لأن هؤلاء الأطفال حين ينفصلون عن والديهم ، يهملون النظافة ويصبحون وحوشاً صغيرة معادية . لا يبالون بالآباء الجدد ، ويحطمون الأثاث ، ويسرقون المنازل . هم متعبون للغاية حتى أن مربياتهم المتطوعات آثرن الالتحاق بالمصانع الحربية على الاستمرار في هذه الخدمة . وقد حدثتني احداهن بعد انتهاء يوم شاق متعب قائلة « إنه عمل مرعب . ولكن يلوح لى أن الظرف يبدو أحيانا على ملامحهم » والواقع إنه يستحيل التأثير على الطفل إذا ما انفصل عن أبويه .

لقد ساعدتني إحدى مؤسسات البر الأمريكية ، أنا وزميلاتي ، فكان أن اقترحنا مناهج جديدة . لم نفرع من سلوك هؤلاء الأطفال ، بل حاولنا فهم ما يدور بخلداهم وقلوبهم . فلم نجد في سلوكهم هذا المضطرب شذوذاً بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة .

يمر الطفل بمراحل ثلاث : المرحلة الفمية ، والإستية الصادية^(١) ، والجنسية . تتوقد فيه نزعة التلذذ بالبراز في المرحلة الثانية فينبغى أن يتعلم التحكم في عمليات التبول والتبرز . وفي المرحلة الثالثة يندفع الصبية نحو الغريبات ويرفعون الجزء السفلى من ملابسهم . وهذا تطور هام في نمو الغريزة الجنسية . وهم يمارسون أكثر العادات شذوذاً مثل مص الأصابع والعبث بأعضاء التناسل . « ويخبطون » رؤوسهم في

(١) الصادية : الميل إلى تعذيب موضوع الحب . واللفظ مشتق من أسم المركيز دى صاد الذى كان مصابا بهذا الانحراف الجنسى .

الأرض والحوائط والكراسى . تلك صورة كاملة للطفولة تتفق تماماً مع ما جاء فى ملخصات التحليل النفسى . ولكن ما العمل ؟

يبدو أن العمل الطبيعى هو تنظيم نشاط الطفل . فينبغى حينئذ أن نكون على معرفة جيدة بالساعة التى يجب أن يأكل فيها أولاً يأكل ، وبنوع الطعام الذى يحسن تقديمه له ، وميعاد نومه ولعبه . . . الخ .

وقد سمعت ذات مرة إحدى البنات الصغار تأمر الصبية هكذا « أقبض على الفنجان بيدك اليمنى ، وارفعه ، وخذ قطعة من الخبز وضعها فى فمك وامضغها » . ولكن نظام عسكري كهذا لا يفضى إلى نتائج حميدة ، لأن الطفل يفقد حينئذ روح المبادرة ، ويعجز عن التحكم فى رغباته فيسعى إلى نفسه .

وقد خطرت ببالى فكرة مغرية وهى تكوين جماعات من الأطفال . ولكنى تساءلت بعد ذلك عما إذا كان فى الإمكان تربية هؤلاء الأطفال الذين يبلغون من العمر الثانية والثالثة والرابعة ، تحت إشراف شخص كبير . فكنا بازاء جماعة بدائية ، وكان قانون القوة هو المحرك الوحيد فى هذا النظام الاجتماعى حيث أطاع الصغار الكبار ، ولم يعتن هؤلاء بأولئك إلا إذا وجدوا فى ذلك منفعة لهم . ولكن كان يحدث أحياناً حين يصرخ أحد الصبية أن يتمكن من المحافظة على ألعابه .

وحدثنى طفل صغير يبلغ من العمر الرابعة فى دهشة قائلاً « لقد أعطتنى أوبلجا هذه التفاحة . ولكنك تعرفين أنها تفاحة جميلة للغاية . إنها ليست نكتة على الإطلاق . فلم لم تأكلها أوبلجا ؟ » . فسألتها « ألم تهد أحياناً أشياء جميلة ؟ » فكر الطفل ملياً وقال « كلا ، ولكن قد يكون ذلك أحياناً ، وأحياناً قليلة » .

فى هذه الجماعة المتواضعة ، وقد ترك الأطفال لأنفسهم ، لم يكن هناك وجود للشفقة أو الحجل أو الشعور بالإثم أو أية محاولة لتحسين أنفسهم أو تغييرها . كانوا من الصغربحيث استحال تربيتهن وسط جماعة . فأنشأنا جماعات من السيدات للقيام بوظيفة الأم ، وكانت النتيجة رائعة . نعم ، إن حب الملكية كان بادياً عليهم فى بادئ الأمر . فكل منهم يتحدث عن أمه الجديدة وكأنها ملك له . وأفرطوا فى حب الشخص المعين أو أهمهم الجديدة . وكان بينهم تنافس قوى . ولكن النقائص الأخرى تلاشت شيئاً فشيئاً ، فأصبح الأطفال نظيفين ، وطالبوا بالعدالة فى المربى ، واستغلوا مقدرتهم على التفوق كى يكسبوا محبة أمهم .

وقد تسامى الفضول الجسمى ، وهو نوع من عرض الأعضاء التناسلية ، فى رغبة

إتمام الأعمال عن طريق الكتابة أو الرسم كي يكسبوا تقدير الأم الجديدة .
وانتشر بينهم رويداً رويداً نوع من الكرم ، بدأ فيه الطفل بإعطاء الأشياء
التي يجلبها إلى الأم الجديدة ثم إلى الأطفال الآخرين في الجماعة ، وبعد ذلك
لكل مرب .

وقد أسفر هذا الأسلوب التربوي بمحاولاته تعديل الغريزة عن فوائد جمّة .
سمعت ولداً صغيراً يحدث أمه بما يمكن في ذاته ، من تلقاء نفسه ، فيقول « لم أَدفع
أحداً — ولم أشد شعراً أحد . فقط بصقت » . تلك هي الخطوة الأولى في تحويل
هؤلاء المتوحشين الصغار إلى أعضاء حية في جماعة متحضرة .

وعند ما أخذنا هؤلاء الأطفال إلى قصر بكنجهام كان سلوكهم ممتازاً . ونظروا
باندهاش وتعجبوا لسلوك الكبار الخالي من الأدب . فقالت بنت صغيرة ، وقد
صدمت بما رأت « أنظر إلى هذه السيدة ! » وانزعج ولد صغير بسبب الأوراق التي
ألقيت في الممرات فقال « إنهم يعدون للملك استقبالا مرعباً ؟ » .

وهكذا يبدو في النهاية أننا قد اكتشفنا علم النفس التحليلي للطفل . فقد
مرت سنة ونصف سنة منذ ترك أولئك الأطفال مرايينا ، ونسونا تماماً . وهم يعيشون
الآن مع والديهم كما لو لم يفارقوهم مطلقاً . والآن نحن نعرف ما هي التربية الحقيقية ،
وما هي التربية المستقبلية . إنها تؤسس لا على الأهداف الخارجية ، بل على الدواعي
الداخلية لشخصية الطفل . إن اليتامى المشردين يقدمون للمعلمين مادة رائعة .
ولكن من الخير جداً أن تكون التربية في العائلة لا في المدرسة .

بقيت كلمة أخيرة عن الفهم الجديد للتربية الذي بواسطته يأمل الأونسكو
تحقيق أهدافه لاستتاب السلم . أوليست أمانينا الحارة هي التي تجعل ذلك الهدف
قابلاً للتحقيق عملياً ، بل يجب أن نبحت عما يتفق وذلك الهدف في طبيعة الطفل .
ليس هناك مخلوق أكثر دولية من الطفل . إنه لا يفرق بين الطبقات والعناصر ،
ولا بين الحيوانات والرجال والآلهة . بل إن الاختلاف في الحجم أو الجنس أكثر
أهمية له .

ولكن الطفل مع ذلك يميل إلى العدوان والمنافسة . إنه يلتبس في أنظمة البالغين
ما يسمح له بأن يطلق العنان لعدوانه دون أن يتعرض للعقاب . وقد صار الطفل
فعلاً في المدارس الأولية وطنياً ، وخاضعاً لروح الفصل .
وقد سمعت ولدين صغيرين يتناقشان في اهتمام بالغ واعترف أحدهما للآخر

قائلا « لقد أخذت بندقيتي وأردت أن أقتل جون . . . ولكنهم يقولون إنك إذا
 قتلت سجنيت . » فهز الآخر كتفيه في كبرياء وقال : « يا لك من غبي — ما عليك
 إلا أن تقول إن جون ألماني ، فإذا قتلتته منحوك وساماً » .
 وإذن فما على الأونسكو إلا أن يهتم أولاً وقبل كل شيء بطبيعة غريزة الطفل
 وبالمنهج الذي نرجو بواسطة أن يحقق إعلاءها » .

ترجمة

مراد وهبة